

الفصل الثالث

الأيمان : بر الأمان

كانت مصر أول دولة فى تاريخ الحضارة الإنسانية تصل إلى مفهوم محدد للإيمان يقترب كثيراً فى حماته من ذلك المفهوم الذى هبطت به الأديان السماوية فيما بعد.. وهذا أكبر دليل على مدى رسوخ الإيمان فى وجدان الشخصية المصرية التى تكونت على مدى سبعة آلاف عام من تاريخها الحضارى الطويل.. وأى تجاهل لهذه القيمة الجيلة فى حياتنا وتراثنا تجاهل فى نفس الوقت لأهم مقومات الشخصية المصرية.. وتاريخ شعبنا يؤكد أن فترات الاضمحلال التى مر بها كانت العصور التى ابتعد فيها الحكام وخلفهم الرعية عن حظيرة الإيمان.

كان الإيمان وسيظل الطريق الوحيد المؤدى إلى فهم المعنى الذى ينطوى عليه هذا الكون.. وإلى إدراك وحدته الأزلية الأبدية التى تتبلور فى علاقة الحب الصافى النقى بين الخالق والمخلوق.. وهى العلاقة التى تحرص دائماً على تخلص الإنسان من الحدود المادية القاتلة التى تجبره على البقاء فى دنيا الحيوان بكل ما تحويه

من غرائز بدائية وانفعالات بربرية وشاطحات وحشية .. وكل البشر - على اختلاف مشاربهم - لديهم هذا الجانب الروحي فى حياتهم سواء اعترفوا به أم أنكروه.. وإذا كان ل!جسد الكثير من المتطلبات فالروح أيضا لها من المتطلبات ما هو أكثر حيوية بالنسبة لنمو الإنسان المتكامل.. لكن الجسد ينتصر فى كثير من الأحيان لأن ضغوط الحياة المادية وإلحاح الغرائز الحيوانية وصراع الغابة الذى يحكم حياة الأفراد؟ يحكم حياة الشعوب، ص هذه العوامل تجعل للجسد السيطرة المؤقتة على الروح وتنسينا القدرة على التأمل والتفكير.. فنحن نرهق أ!ابنا وغرائزنا طوال العام فى انفعالات هذه الحياة التى نحيها.. نشقى ونسعد ونتألم ونفرح.. لكننا ننسى دائماً ونحن

فى هذا الموكب أنه يجب أن نعود إلى نفوسنا ولو لبعض لحظات نست! فيها سر وجودنا وماهية رسالتنا على هذه الأرض.. وبذلك أصبح مرور الأيام وتعاقب الليالى شيئاً رتيباً مملاً، نحسه ولا ندركه، ونعيش فيه ولكن لا نغوص فى سره .

هكذا خفتت شعلة الأيمان داخلنا، وهى فى الواقع بين أيدينا.. إن أردنا أشعلنا نورها.. وإن أردنا أخدمنا جفوتها.. وهى أكبر دليل على أننا لم نخلق عبثاً، وص إنسان منا كولد وفى عنقه رسالة عليه أن يؤديها حمداً منه وشكراً للخالق الأعظم الذى كرم الإنسان ونفخ فيه من روحه جعله أشرف المخلوقات.. فهل يجوز لأشرف المخلوقات أن يتجاوز عن قيمة الأيمان فى حياته وبذلك ينزل عما شرفه به الله فى خليقته، فلا يرعى الحق والعدل وهما شريعة خالقه؟

إن الأيمان بمفهومه الرحب الشامل قادر على أن يرتفع بأفاق تفكيرنا فوق ما فرضناه على أنفسنا من قيود هى من صنعنا ولكنها ليست من طبيعتنا أو تراثنا الذى يؤكد باستمرار على الدور الحيوى الخطير التى يتحتم على الأيمان أن يلعبه فى حياتنا. من هنا كان قولى فى ورقة أكتوبر " :

كان من أبرز صفات هذا الشعب دائماً تمسكه. بالأيمن واعتزازه بالأصالة.. أما الأيمان؟ نفهمه اليوم فهو ذلك الأيمان النقي الخالص البريء من التعصب والمتطهر من تلك الشوائب التي علقت بجوهره في عصور الاضمحلال، البعيد عما ينسب إليه زورا من روح التواكل التي لا تعرف المشواعة، والتعلق بالخرافات ونفى دور إرادة الإنسان وإرادة المجتمع في أن يواجه أمور حياته المتجددة مستعينا بما أودعه الله فيه من عقل ميزه به عن سائر المخلوقات.. وقد علمنا محمد رسول الله (ص) هذه المعاني في قوله : " مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم، لا يفتر عن صلاة ولا صيام حتى يرجع " .. وليس الجهاد في سبيل الله هو القتال وحده، فقد قال لنا رسول الله (ص) أيضا " من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع بل وعلمنا الجهاد بمعناه الاجتماعي العميق بقوله صلوات الله وسلامه عليه :

"الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله " .



وليس أخطر على هذا الأيمان فى معدنه الحقيقى من الذين يجعلون منه نقيضا للعمل والبحث والعلم.. فالله عز وجل قد وضع طلب العلم فى مستوى الجهاد فى سبيل الله، وجعله قرينا للإيمان حين قال سبحانه وتعالى:

"يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " صدق الله العظيم

هذا هو ما أكدته فى " ورقة أكتوبر " وأعود إلى تأكيده مرة أخرى لأجيال شبابنا المعرضة للعديد من التيارات الفكرية المستوردة والمتصارعة حتى يتخذوا منه أرضا صلبة راسخة يقفون عليها بأقدام ثابتة فى مهب هذه الرياح.. فلا خير فى أمة يتحول شبابها إلى ريشة فى مهب الرياح.. أننا لابد أن نتمسك بقيمنا الروحية والأخلاقية فى مواجهة موجة الاستمتاع المادى التى تعرفها مجتمعات الاستهلاك الغنية لأن تلك القيم هى من السمات الأصيلة لحضاراتنا.. ولأن المجتمعات التى تجاهلتها تعرف الشقاء النفسى وسط الوفرة المادية.

الأيمنان.. بر الأمان 49

الأيمان هو الدافع الأساسي لتمسكنا بقيم التكافل الاجتماعي وتماسك الأسرة وسيادة مشاعر المحبة ونبذ د.. فقد كانت تلك القيم هي العاصم للمجتمع في الأوقات وهي السياج ضد نزعات الفردية المطلقة، وانعدام المسؤولية الاجتماعية، التي تفكك المجتمع وتسلب الإنسان مشاعر ما أحوجه إليها.

إن الأيمان هو السلاح الذي وهبه الله للإنسان لكي يميز بين والباطل.. بين الفضيلة والرذيلة، بين الخير والشر وهكذا.. في مختلف صراعات الحياة.. بل أن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد لأن الأيمان هو الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى معرفة حقيقية لا تقوم على الخوف من العقاب أو الطمع في الثواب ، ولكن تقوم على الاستيعاب الشامل، والحب الناضج بين الخالق والمخلوق.. هذا كله يتأتى عن طريق التجاوب الفعال بين التنظيم العقلي والانطلاق الروحي.. ولعل المثل لسدى المصرى خير ما يعبر عن هذه الحقيقة عندما يقول "ربنا عرفوه بالعقل " .. وبناء على ذلك فنحن نعيش في كون معقول لأنه يتبع في كلياته وجزئياته قوانين ثابتة وواضحة..

تسير على نهج محدد من الأزل إلى الأبد.. فهي لا تحير العقل بالمفاجآت أو بالتحويلات ولا تلتبس على فهم ولا تستعصى على منطق، لأن الله منح الإنسان روحا وعقلا لكي يدرك بهما

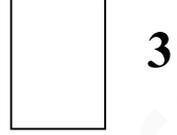
القوانين الإلهية التى تحكم ص شىء، من أكبر إلى أصغر جزء فى الوجود وتربط ص الموجودات برباط محكم. وهذه القوانين إلى جانب أنها ثابتة وواضحة فهى صارمة وقاطعة.. فالعالم تحكمه المطلقات ولا مجال فيه للعبث بهذه المطلقات وعلى سبيل المثال فإن الخير خير فى كل زمان ومكان. كان خيرا منذ آدم بل كان خيرا فى علم الله قبل أن يأتى آدم إلى الوجود وهو اليوم خير وسوف يكون خيرا حتى نهاية العالم.. كذلك الشر شر فى كل زمان ومكان.. كذلك الفضيلة فضيلة والرذيلة رذيلة ولن يلتقى الاثنان .

فإذا عجز عقل فرد عن فهم هذه المطلقات الصادرة عن العقل الأكبر المعقول لا كبار على هذه المطلقات وإنما الغبار على عقل الفرد الذى فقد علاقته العضوية بروحه وجسده، أما عقل الجماعة فلا غبار عليه ومهما ضل الفرد فالمجتمع عاقل ومعقول وإلا كان قد اندثر.. ولذلك فإن إرادة الشعب من إرادة الله ، وان الدين للعمران الدنيوى وليس فقط لحياة الآخرة... لهذا أمكن أن يحكم المجتمع بالقوانين المطلقة التى كان يمكن لعقل الإنسان أن يعقلها مع مرور الزمن لولا لطف الله به فهو الذى بادر فبلورها فى كتبه السماوية.. فى هذه الكتب ارتسم للإنسان طريقان واضحا لا ثالث لهما: طريق الغى وطريق الرشاد، وكل منهما يفضى إلى نتيجته الحتمية وهى الجحيم للمخطئين والنعيم للمتقين .

الأيمان.. بر الأمان 51

وبما أن القوانين الدينية- والقوانين الدنيوية مبنية عليها- معقولة، وبما أن الإنسان مخلوق عاقل، أذن فقد تحددت مسؤوليته عن أعماله وأفكاره ونواياه جميعا فى المسئولية كاملة لأن الإنسان مخير وهو مخير لأنه مميز.. وهو مميز لأن الله لطف به ...

www.anwarsadat.com



من هنا كانت حتمية الإيمان بالله والعمل بما أنزله فى كتبه السماوية.. ولما كان الإيمان هبة من عند الله كان الإنسان هو المخلوق الوحيد المسلح بأسلحة تمكنه من منازلة الشيطان ومحقه وكان الشيطان قوة خارجية تنازل الإنسان من الخارج.. فتجسم آماله حيناً فى زى المال وحيناً فى زى رفيق السوء.. وهكذا إلى آخره من مغريات الحياة الدنيا.. ولكن الإنسان الحقيقى بماله من إيمان راسخ وعقل مميز وروح مفطورة على الخير يستطيع أن ينازل هذه الأخطاء الخارجية ويمنعها من أن تتغلغل فيه وتفسد نفسه وعمله وفكره.. ولقد يخسر الفارس المحارب جولة أو جولات ولكنه فى النهاية فائز ومنصور إن هو اتخذ من العقل درعه ومن الدين سيفه.

والفرد المؤمن فرد مطمئن وكذلك المجتمع المؤمن فإن الطمأنينة لا بد أن تسوده لأن العلاقات الإنسانية الثابتة والمطلقة هى التى تربط بين أفراده.. كل من فيه مطمئن إلى عدالة السماء، وإلى أن هناك قوة إلهية أزلية وأبدية تنظر إلى المؤمنين

الأيمان.. بر الأمان 53

بعين الحب والرعاية، فإن حدث خطأ بشري ونضبت عدالة الأرض.. فعدالة السماء لا تنضب.. وهى تملك من قوى التصحيح على الأرض ما يثبت فاعليته الحاسمة فى الوقت المناسب والذى قد لا يخطر على بال بشر.. ولذلك فإن الأيمان هو السلاح الوحيد القادر على هزيمة تلك القوة الغامضة التى نسميها بالقدر.. قد لا نستطع أن نحكم على أفعال القدر عندما تحدث، ولكن بعد مرور وقت طويل نستطع أن ننظر إلى الماضى، فنجد أن الأيمان الذى نتذرع به عندما نعمل فى سبيل الحق، هو دائماً أقوى من القدر.

قد يظن الناس أن هذا الكلام من باب الوعظ ولكنه إذا تعمق معانيه سيجد أنها حقائق طالما حاولنا الهرب منها لأن نفوسنا لم تستمتع بلذة ممارستها.. فلقد خلق الله الأيمان فى قلب الإنسان من أجل تهذيب النفس الطائشة وتنظيم المجتمع ا لبدائى.

والأيمان هو الوسيلة الوحيدة التى تجنب الإنسان فقدان مدلوله الإنسانى والاجتماعى حتى لا يتساوى وجوده مع عدمه.. فإذا كنا نقول أن للإنسان وجوداً ذاتياً نابعا من كيانه الشخصى فأننا لابد أن نضيف البعد الاجتماعى الموضوعى إلى بعده الشخصى الذاتى حتى تتوافر شروط وجوده كأنسان متكامل.. فالواقع أن الإنسان لا يوجد فى فراغ بل أن وجوده مرتبط بوجود الآخرين.. فالإنسان فى نظر الآخرين ليس

هو بالذات وإنما مجرد الصورة التى تكونت فى ذهنهم عنه، وبذلك يختلف وجوده من شخص لآخر أى أن النسبية تتدخل حتى فى الكيان الشخصى للإنسان.. ونفس المعيار ينطبق على وجود الآخرين بالنسبة للإنسان.

لذلك فالوجود الفعلى للإنسان هو حاصل التفاعل بين كيانه ووجود الآخرين.. وهذا يؤكد أن فقدان الآخرين خاصة الأصدقاء منهم هو فقدان أجزاء من نفوسنا بكل ما تحمله من أمل ونبل وتضحية وعزاء.. فالعلاقة الإنسانية نسيج حساس لا يعتمد فقط على الحاجة المتبادلة لكنه يمتد ليشمل كل المثل والقيم والأخلاق والاحساسات والمعافى التى حرصت الإنسانية على تأكيدها منذ فجر الحضارة.. والأيمان خير ما يمد الإنسان بالإحساس المرهف الذى يمكنه من وضع العلاقات الإنسانية فى إطارها الصحيح.. فلا ينظر إلى الحياة فى ضوء قانون الغاب بل يسمو إلى الآفاق. التى جعلت منه أعظم وأروع مخلوق على ظهر هذه الأرض .



والتأمل الروحي الجاد ظاهرة مصاحبة للإيمان العميق، لذلك فإنه من المفيد بل من الضروري للإنسان أن يخلو إلى نفسه بين الحين والآخر حتى يحاسبها ويضع لها الإطار الذي يجعل اتصالها بالآخرين من أجل سعادة الإنسان. وهذا يذكرنا بسقراط عندما ينظر إلى الإنسان على أنه مخلوق في مقدوره أن يفحص ويراجع ويتأمل أحوال وجوده في كل لحظة من لحظات هذا الوجود.. ويرى سقراط أنه في ضوء هذا التأمل تكمن القيمة الحقيقية للحياة.

يقول في هذا: " إن الحياة التي لا توضع موضع التأمل..لا تستحق أن تستمر ". من هنا كانت دعوتى إلى نبذ التشنج والجموح والانصياع لنزوات النفس.. فينبغى ألا ننساق وراء انفعالاتنا إلى حد التدمير.. ذلك لأن الأشياء تتغير باستمرار.. ولا يبقى إلا الجوهر الذى يجب أن نحرص عليه ونتمسك به وقديما قال سقراط: أ لا تبدد نفسك، لا تضع طاقتك فيما لا يفيد.. لا تكن جامح الرغبة.. لا تكن ضحية

للتشنج، بل أملك زمام نفسك، وانظر إلى الحياة نظرة مخلوق فان.. أما الأشياء التى حولك فإنها لا تمس النفس لأن تلك الأشياء خارجية وهى تتغير سريعاً ولا يبقى منها أثر ولتذكر كم شهدت أنت من صور هذا التغير المستمر."

هذا الإدراك الناضج لا يتأتى إلا من روح غمرها الأيمان.. وعقل تشرب العلم. والجمع بين العلم والأيمان ليس على سبيل الربط بين الأضداد؟ يتبادر للذهن التقليدى لأول وهله.. لأن الأيمان قد يكون الامتداد العضوى للعلم.. وقد يكون العكس.. أى أن العلم يمكن أن يكون الامتداد العضوى للأيمان.. من هنا كانت ضرورة تطبيق شعار " العلم والأيمان " كشعار لمصر الحديثة، وكمنهج للتكامل الفكرى الذى يلبي احتياجات الإنسان المادية والروحية فى آن واحد. ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن كل ما بنيناه معرض للدمار، إذا لم نقف ونبنى دولتنا الجديدة البناء الصحيح الذى لا يكون إلا على العلم والأيمان.. بالعلم لن نتخلف ابل! عن كل ما فى العصر من مستحدثات ولن نعيش أبداً متخلفين.. بل إن علينا أن نعود إلى حضارتنا وإلى ما بنيناه عبر تاريخنا وأخذ منه غيرنا وبنى عليه.. أما بالأيمان فسنكون دائماً قوة صلبة منيعة لا يستطيعان يتعرض لها أى عاد أو غاز أو مستعمر أو معتد.. الأيمان بالله سبحانه وتعالى والأيمان بأرضنا وترابنا.. بكل شىء فى بلدنا.. الأيمان بتاريخنا.. الأيمان بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا .. الأيمان الذى لا يتزعزع فى أننا بعون

الله وبإرادة الله سنجعل من هذا الوطن عائلة واحدة .
وتتجلى علاقة العلم والإيمان فى آراء العلماء والفلاسفة الذين قفزوا بالفكر
الإنسانى قفزات واسعة.. يقول آينشتين مثلا مؤكدا ضرورة الإيمان لفكر العالم " إن
الإيمان هو أقوى وأنبأ نتائج البحوث العلمية ، والدين يشمل الإعجاب المتواضع
بتلك الروح العليا غير المحدودة والتي تكشف فى لمحات خاطفة عن بعض التفاصيل
القليلة التى لا تستطيع عقولنا المتواضعة إدراكها ، وهذا الإيمان القلبى العميق..
والاعتقاد بوجود قوة حكيمة عليا تستطيع إدراكها خلال ذلك الكون الغامض يلهمنى
فكرتى عن الله " .

هذا ما يقوله عالم وفيلسوف دماغه معظم الدارسين بالمادية والإلحاد . وهذا يؤكد
بدوره أنه لا غنى لعلم مهما ارتقى وتطور عن الإيمان .. فالإيمان ضرورة حتمية
سواء للعالم أو للرجل العادى لأنه لا بد أن يؤمن الإنسان بدين أو بعقيدة أو بمبدأ أو
نظرية .. إلخ .. وأسمى أنواع الأيمان هو الذى يرتفع بفكر الإنسان وسلوكه من
عالم المادة المضطرب والمرهق إلى عالم المثال والروح .. ذلك العالم الذى ينبع
منه الحق والخير والجمال .

يذكرنى هذا بحكمة قرأتها وأنا فى السجن فحفظتها عن ظهر قلب ثم دونتها فى تلك
الكراسة التى احتفظ بها حتى اليوم..

كانت تقول:

" خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وخلق الشياطين من شهوة بلا عقل، وخلق ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من الشياطين " .

كم نحن بحاجة لأن نفهم بعقولنا وأرواحنا وأجسادنا هذه الحكمة الخالدة وسط تيار الصراع البشرى المخيف الذى جرفنا، وغمر كياننا وحياتنا بزخرف المادة البراق فغلبت شهوتنا عقولنا وأصبحنا شرا من الشياطين .

أننا لا نحس السعادة وسوف لا نذوق لها طعما إلا إذا عدنا إلى عالم الروح.. وعالم الروح منبع الحق والخير والجمال.. فى هذا العالم ترتفع الغشاوة عن العين ليرى البشر نعيما رائعا، وجمالا ساميا حين تتكشف لهم أسطورة الخلد وآية النجاة.. فى هذا العالم تصفو النفوس فلا يعود يستبد بها غضب ، أو حقد ، أو كراهية فهذه بضاعة المادة ، ووحى شياطين الدنيا الفانية.. فى هذا العالم يملأ القلب إيمان راسخ، والأيمان أبدا هو القوة فى اسمى مظاهرها.. هنا فقط يبدأ أقدم وأعظم درس فى الوجود وهو الحب ، فيحب الإنسان الله لأنه الحق، وهو الحبيب الذى بيده ملكوت كل شىء ، ويحب الإنسان كل الأشياء ، وهذه الأشياء من صنع يد واحدة هى يد الفنان الأعظم سبحانه وتعالى .

ولا شك فى أن محك أصالة أى فكر ، هو التطبيق العملى له لاكتشاف مدى ثباته فى مواجهة عجلة الزمن وحركة المجتمع.. وكانت حرب أكتوبر
المجيدة هى الامتحان الذى
60وصيتى

اجتازته النظرية بنجاح باهر.. كان السلاح الحديث فى يد الجندي المصرى كما كان الإيمان فى قلبه واختلط هدير المدافع بأزيز الطائرات بقعقة الدبابات بهتاف " الله ! أكبر " وتحول جيشنا إلى طوفان هادر أغرق فى طريقه كل تحصينات العدو وأسلحته الحديثة بحيث ولى مذعورا كالأرانب الجبلية.. ذلك تأكيد لأجيال ما بعد

السادس من أكتوبر: إن طريق العلم والأيمان هو الطريق المؤدى إلى التحرير
والتعمير فى آن واحد.

www.anwarsadat.org